الزفاف

ماكسيم جوركى • ترجمة : مصطفى الريس

فى احـــدى المحطات الصغيرة بين روما وجنوا فتـــح الكمسارى باب الديوان وساعد رجلا مسنا بعين واحدة ·· على الدخول فقال بعض الموجودين فى صوت واحد وقد علت وجوههم ابتسامة « عجوز جدا ! » لكن الرجل استدار فى خفة يشكر مساعديه فى سرور وأدب بتلويح قبعته المتآكلة بيده المعروقة وجعل يتفحص المقـــاعد بعين ماكرة ثم سأل الجالسين « هل تسمحون لى ؟ » ·

فقام بعض المســـافرين وجلس الرجل وهو يزفر من التعب وقـــد أراح يديه على ركبتيه وبرزت عظامهما وشفتاه تفتر عن بسمة هادئة ·

سأله صديقى : « أمسافر الى جهة بعيدة ياجدى ؟ » ·

فأجابه العجوز بسرعة : « كلا ، بعد ثلاث محطات من هنا ، فانى ذاهب لحضور زفاف حفيدى » ·

ومرت بضع دقائق مع دقات العجـــل المنتظمة بينما العجوز يحكى لنـــا قصته يتأرجح من ناحية لأخرى كغصن محطم فى يوم عاصف ·

قال الرجل « انا ليجورى ، نحن الليجـوريين قـــوم أقوياء ، خذونى مثلا فانا عندى ثلاثة عشر ولدا وأربع بنات، ولا أعرف عدد أحفادى ، هذا هو الثانى منهم الذى يتزوج ، يا للروعة » ·

وبنظرة ملؤها الفخر أخذ يراقب الموجـــودين بعينه الواحدة لا يستطيع اخفاء فرحته ثم انفجر ضاحكا · وأضاف « انظروا كم أعطيت من الابناء لوطنى ، ثم كيف فقـــدت عينى !؟ آه ان ذلك حدث من زمن بعيد ، كنت يومئذ صبيا، ولـكنى كنت أعاون والدى فى حرث الارض وكانت الارض تحتنا حجرية قاسية تحتـــاج الى كثير من الحذر ، وعندما

تطايرت قطعـــة من الحجر من ضربة فأسه أصـــابت عينى اليمنى ، لا أتذكر مبلغ الالم الذى احسسته ولكنى أثنـــاء تناولى طعام الغذاء فى ذلك اليوم سقطت عينى . كان ذلك رهيبا ياسيدى فلصقوها لى ووضعوا عليها لزقةخبز دافىء .. ولكن دون جدوى .. فقد ضاعت عينى » .

ثم أخذ يحك خده الباهت فى شدة وما لبثت ابتسامته الهادئة تغمر وجهه الطيب ثم اســـتانف حديثه « ولم يكن الاطباء موجودين بالكثرة التى هم عليها الآن ، كان الجهـــل متغشيا بين الناس ، ولكن ربما كانوا أكثر طيبة » .

واستطرد العجـــوز وفى عينه لمحـــة ماكرة تدل على الانتصار بينما بدا وجهه وقد عمق الزمن تجاعيده ونتوءاته وهالة من الشعر الرمادى تحيط رأسه : « عندما يعمر انسان مثلى فان باستطاعته الحكم على الناس ، ألستم معى فى هذا؟»

ثم رفع اصبعه الملتوى فى جديه كانما يقرع انسانا : « دعنى ياسيدى احكى لكم شيئا عن النـــاس ، كنت فى الثالثة عشرة من عمرى عنـــدما مات والدى وكنت آنذاك انحف مما أنا عليه الآن ، ولكنى كنت ولدا ممتلئا بالحيوية لا أعرف التعب ، عندما أزاول عملا ، ذلك كل ما ورثته عن أبى لان المنزل وقطعـــة الارض الصغيرة قد بيعـــا لتغطية ديوننا . وهكذا عشت بعينى الواحدة ويدى الاثنتين أعمل فى أى مكان يتوفر فيه العمل ، ومرت الحياة قاسية ولكن الشـــباب لا يخشى المشقة ، أليس كذلك ؟ وعنـــدما بلغت التاسعة عشرة قابلت الفتاة التى قدر لى أن أقع فى حبها ، كانت فقيرة مثلى ولكنها قـــوية البنية .. كانت أقوى منى تعيش مع أمها العجـــوز المريضة وتعمـــل مثلى فى أى مكان يصادفها ، لم تكن جميلة ولكنها طيبة تحمل فوق كتفيهـــا رأسا صائب الفكر ، وصوتا عذبا أيضا ، يالله كيف كانت تغنى .. تماما كمغنية محترفة ، فالصوت الجميل يساوى الكثير وقد تعودت ـ أنا نفسى ـ أن أجيد الغناء !! وفى أحد الايام سألتها : « هل نتزوج ؟ » .

فاجابتنى فى حزن «سيصبح ذلك عملا جنونيا ياأعور، فان كلينا لا يملك شيئا كيف نعيش ؟ » .

فقلت « هذه ارادة الله أن نكون فقراء ولكن ما الذى يحتـــاجه شابان يجمعهما الحب ؟ » انكم أنفســكم تعرفون ما يحتاجه العشاق الصغار ، لقد صممت وفزت بالجولة ·

وردت ايدا أخيرا : « حسن ، من الجائز انك على حق اذا كانت السيدة العذراء تعنينا الآن وكل منا بعيد عن الآخر فكم يكون من الأيسر ان تعاوننا ونحن فى عيشة واحدة ·

وعلى ذلك ذهبنا الى القسيس الذى قال : «هذا جنون! ألا يوجد العـــدد الكافى من المسئولين فى ليجوريا أيهـــا التعساء ، انكم لعبة للشيطان قاوموا شره والا ستدفعون الكثير نظير ضعفكم » ··

أخذ بعض الشبان يضحكون علينا والكبار يلوموننا ، لكن الشباب يصمم من مسلك الطريق الذى يختار ·

وقرب يوم الزفاف ، ولم تكن فيه حالتنا المالية بأحسن من ذى قبل ، ولم نكن نعرف حتى أين نبيت ليلة زفافنا ·

قالت ايدا : « دعنا نذهب الى الحقول ! لم لا ؟ فان السيدة العذراء تحنو على الناس أينما كانوا » ·

وعلى ذلك قررنا أن نفترش الارض ونلتحف السماء ، وهنا تبدأ قصة أخرى ياسيدى أرجو أن تنتبهوا اليها لانهـا أحسن قصص حياتى ·· ففى صباح مبكر لليوم السابق على الزفاف همس فى أذنى سيد عجوز كنت أقوم بخدمته لانه لا يحب الكلام فى هذه الموضوعات البسيطة ، يجب أن تنظف حظيرة الاغنام القديمة وتفرشها ببعض القش النظيف ·· انه جاف فمنذ أكثر من عام لا توجد بالحظيرة أغنام ، ولكنك اذا أردت وايدا المعيشة فيها فعليكما تنظيفها جيدا · وبالفعـــل أصبح ذلك مسكننا ··

وبينما أنا مشـــغول فى تنظيف حظيرة الغنم · أغنى أثناء عملى رأيت الحوذى « كوستانزيو » واقفـــا الى جوار البوابة فقال : اذن ها هنا تعيشان انت وايدا ؟ ولكن أين السرير ؟ ان عندى سريرا زيادة بالمنزل تعال وخذه عندما تنتهى من التنظيف ، وأثناء ذهابى اليه صاحت على « ماريا » صاحبة المحل ، سليطه اللسان : أتتزوجون أيها الاغبياء ، بلا ملاءة أو مخدة ، انك لمجنون ·· يا أعور ، لكن ابعث لى بعروسك ···

فصرخ يرد عليها « انورفيانو » الاعرج ـ الذى طالما عذبته الحمى والروماتيزم وهو على عتبة دكانه : بل اساليه كم زجاجة خمر أعدها للضيوف ! آه كم يصبح النـــاس مخبولين ؟ وهنا انحدرت دمعة على خد العجوز المجعد ، وقد طوح برأسه الى الخلف وهو يبتسم بينما تفـــاحة آدم فى رقبته تتحرك فى عصبيه ثم قال وقد هزه الضحك وأخذت يداه تتحركان فى فرحة كفرحة الاطفال ·· «آه ياسيدى ·· وفى صباح يوم الزفاف كان عندنا كل شىء يحتاجه بيتنا · تمثال مريم ، اطباق ، ملابس ، أثاث ···

كل شىء أقسم لك ! ضحكت أنا وايدا وبكينا ثم ضحك الجميع معنا ، لانه من غير المناسب البكاء يوم الزفاف · انه ياسيدى لشىء بديع أن يستطيع المرء دعوة النـــاس اليه ، وأجمل من ذلك أن تشعرهم انهم أعز أحبائك ·· هؤلاء هم الناس الذين تهمهم حياتك ولا يقامرون بسعادتك ، ثم كيف كان الزفاف ؟ يا له من يوم . حضر جمع كبير للاحتفال ، جاء كل منهم الى حظيرة الغنم التى أصبحت فى لحظة كقصر كبير ·· لقد أصبح لدينا كل شىء ، خمر وفاكهة ، لحم ·· وخبز ·· وأخذ الجميع يأكلون ويمرحون ، ذلك يا سيدى لانه ليس هناك أعظم سعادة من فعل الخير للناس صدقنى انه ليس هناك أجمل ولا أبدع من ذلك ! وحضر القسيس ايضـــا وخطب خطبة ممتازة قال هنا ·· اثنـــان عملا من أجلكم جميعا وقد بذلتم ما فى استطاعتكم كى تجعلوا هـذا اليوم أجمل أيام حياتهما ، وهذا ما ينبغى أن يكون لانهمـا بذلا الكثير فى خدمتكم والعمل أجل بكثير من الذهب والفضة، العمل دائما أهم بكثير من الاجر الذى تلقاه فى سبيله ! المال يذهب لكن العمل يبقى ·· هؤلاء الناس فقراء لكنهم سعداء ان حياتهم شاقة ومع ذلك لا يشكون وسوف تظل معيشتهم قاسية ولكنهم لن يتضجروا يوما لانكم ســـوف تساعدونهم وقت احتياجهم ·· هـــذا وقد مدحنى القسيس أنا وايدا كثيرا ، كما اثنى على كل الحاضرين » ·

وأخيرا نظر الينا الرجل العجـوز بعينه الواحدة التى عادت الى انكماشها مرة أخرى :

« وهكذا ياسيدى قصصت عليكم بعض الحكايات عن الناس ، انها كانت رائعة أليس كذلك ؟! » ·